طاهر عبدالحكيم

«وفيما كنا نتمشى معا مع غروب شمس الواحات عبر المساحة الممتدة لحوش السجن، وفيما كنا نتذكر لقاءاتنا الأولى ونضالاتنا المشتركة فى الزمان القديم، والتباعد التنظيمى بيننا، توقف طاهر فجأة وقال «إحنا نعرف بعض قبل كل الناس دول» ثم قال فى أسى «إحنا عاملين زى اثنين مختلفين فى الديانة وبيحبوا بعض جدا لكن ميقدروش يتجوزوا».

وطاهر هو الابن الرابع من بين ستة أبناء لناظر مدرسة يمتلك قطعة صغيرة من الأرض، فالتصق بقريته «القباب الصغرى مركز دكرنس» لأن ايرادها مكون أساسى لما يحتاجه الرجل للإنفاق على الأولاد وتعليمهم، ويمضى طاهر من الكتاب إلى المنصورة الابتدائية ثم المنصورة الثانوية يسافر كل يوم إلى المنصورة ويعود، حتى كبرت البنات وأصرت الأم على تعليمهن فانتقلت الأسرة من القباب إلى المنصورة، الوالد وفدى متعصب.. يشيع بتعصبه مناخا صاخبا والمفردات الصاخبة هى الوفد - أحزاب الأقلية - السراى - الاحتلال، فجأة دخلت مفردات جديدة فالابن الأكبر شوقى ميكانيكى طيران وأصبح عضوا فى حدتو وهبطت فى المنزل مفردات جديدة - الرأسمالية - الاشتراكية - الصراع الطبقى، ويعتقل شوقى فى معتقل سيوة ثم يفرج عنه ليجد نفسه مفصولا.. ويلتفت طاهر إلى الاشتراكية وينضم وهو طالب فى كلية الآداب إلى تنظيم صغير جدا اسمه «نواة الحزب الشيوعى المصرى» وعندما يتخرج يعمل مدرسا فى مدرسة سمنود الثانوية، وذات يوم قال لى زميل من رفاق حدتو هوفتحى نوفل، إن عضوا فى النواة يريد مقابلتى والتقينا، واتفقنا على عمل مشترك، لكن عدة أيام لاحقة أتت ومعها ثورة يوليو، ووقع خلاف فى المواقف فحدتو شاركت فى صنع الثورة وبالطبع أيدتها، والنواة عارضتها، وكنت فى هذه الأثناء خارجا من المعتقل وأتممت امتحان الثانوية العامة، وبدأت مع الرفاق نشاطا جادا وأتانى فتحى نوفل مرة أخرى يطلب مقابلة طاهر الذى حضر ومعه عبد الله

الزغبى وكان اللقاء ساخنا، وارتفع صوتنا حتى جذب أنظار الجالسين فى قهوة سيرفا فتقدم منا أحدهم وهو مصور اسمه محمد العقاد وكان أحد قادة مصر الفتاة أتى لبطلب منى العمل معا للمطالبة بالإفراج عن أحمد حسين وهنا التقط طاهر ما يوحدنا وقال لنا لكم ١٤ معتقلا لازالوا لم يفرج عنهم وهناك أحمد حسين فلنرفع شعار «افرجوا عن المعتقلين السياسيين» وبعدها بيومين أتى عبدالناصر وعدد من قادة الثورة إلى المنصورة وفى منتزه الكنانى عقد مؤتمر حاشد، وارتفع هتافنا بالإفراج عن المعتقلين وغطى على محاولات جمال للخطابة، وكان الضباط ونظامهم بلا خبرة فغضب عبدالناصر وانطلق بسيارات ركبه إلى كفر شكر، وأحسسنا نحن بالانتصار، واستمر التنسيق الحميم ليمضى عام ونكون بعدها فى معسكر واحد ضد الديكتاتورية العسكرية، وكانت زيارة من فتحى رضوان - وكان وزيرا - ويعقد سلسلة اجتماعات ومؤتمرات يبرر فيها حل الأحزاب، وتجمعنا معا كل رفاق حدتو وطاهر وعبدالله الزغبى وبكر الشرقاوى ومختار السيد وعشرات غيرهم وما أن بدأ فتحى رضوان حديثه حتى صرخ عبد الله الزغبى وبأعلى صوت «خنت ذكرى فريد» ثم «خفت ذكرى مصطفى» وهاج السرادق تحت وهج الهتافات وتطايرت الكراسى وتهدم السرادق، وبدأ الأمن فى القبض على عدد من الحاضرين وتسلل طاهر وأنا وعبده الله الزغبى معه من فتحة فى بقايا السرادق، وتمضى سنوات وتبدأ جريدة المساء فى الصدور برئاسة خالد محيى الدين ويستدعيه مسئوله السابق فى تنظيم النواة محمود أمين العالم ليعمل معه فى «المساء».. لكن شهر العسل بين الشيوعيين والحكومة لا يلبث أن ينتهى وفى يناير ١٩٥٩ تفتح المعتقلات أبوابها لتضم أكثر من نصف محررى المساء، كنت قد سبقته إلى السجن بسنوات عديدة ثم التقينا فى السجن لسنوات عديدة لتتعزز فيها صداقة حميمة، وبعد الإفراج الجماعى (أبريل ١٩٦٤) وصدور قرارات حل التنظيمات الشيوعية بيد أصحابها، كنا نلتقى لتتوالى جلساتنا الحميمة فى صالة فندق اكروبول بشارع البحر بالمنصورة، حتى أصبحنا زبائن دائمين هو وسعد عبداللطيف وعبدالله الزغبى وأنا، نتناقش وفى كل يوم نكرر ذات الكلمات حتى أصبحت بلا معنى، لم يكن قرار الحل هو المأساة الوحيدة لكننا كنا نشعر بالغربة الشديدة عن مجتمع هذا الزمان، وبعد فترة أعلن طاهر عبدالحكيم تحليله للموقف فقال عبارات ظللنا نحن الأربعة نتذكرها كلما التقينا «نحن نعيش زمن الفشل العظيم، فأمل الحزب الشيوعى تهاوى،

والتجربة الناصرية تمتلك عوامل تآكلها ويتكشف الأمر كله عن حلم يختلط بالكابوس، أو كابوس يختلط بالحلم»، وبعد فترة تفرقنا متواعدين على ضرورة اللقاء دوريا أنا إلى القاهرة حيث عملت بدار أخبار اليوم، وهو إلى القاهرة أيضا حيث عمل بالجمهورية د. عبد الله الزغبى إلى الإسكندرية ثم لحق سعد الساعى بركب من أتوا إلى القاهرة، وفى إجازة أحد الأعياد رتب طاهر لقاء فى الاكروبول، وما أن جلسنا حتى تلبست طاهر حالة من الوقار ثم قال فى حزم «ثم ماذا؟» وبدأنا فى حوار مضمونه أن يفعل كل منا شيئا.. عبدالله الزغبى بدأ نشاطا محموما فى التأمين الصحى الوليد بالإسكندرية بعد أن أصبح محاميا هناك، وطاهر أعلن أنه سيفضح التعذيب الوحشى الناصرى وانغمس فى كتابه «الأقدام العارية» وأنا تعهدت أن أحاول كتابة تاريخ الحركة الشيوعية المصرية، وبعدها تكون النكسة، ثم رحيل عبدالناصر، ثم كامب ديفيد فتكون جلساتنا فى الأكروبول مآتم يتم فيها رثاء الواقع المرير، ثم وفى أحد اللقاءات كنت أنا وهو وحدنا فى الأكروبول مشاغل الحياة شغلت الآخران عن موعدنا، قال طاهر عبارة غريبة «أنا لم أعد أحتمل، بل لم أعد أحتمل بلدا يحتملها» ثم قال أنا سأرحل إلى وهم جديد هو القضية الفلسطينية لعله يتحقق ولو بأقل قدر»، ورحل طاهر إلى بيروت وانتمى بكليته إلى القضية الفلسطينية وانتقلت لقاءات متباعدة إلى بيروت، ومن بيروت سافر إلى باريس ليبحث عن اللغز الذى حيره طويلا وحيرنا معه، فحصل هناك على الدكتوراة عبر رسالة عنوانها «الشخصية الوطنية المصرية» وفيها يسجل انتقادات حادة لمحاولات كتابة تاريخ مصر ومنهجية هذه الكتابة ويقول «إن كتابة التاريخ دون الانطلاق من مصدر فلسفى لن تؤدى بنا فى أحسن الأحوال إلا أى رصد وتسجيل وسرد لوقائع ستبدو فى هذه الحالة وكأنها تفتقد إلى رابط بينها أو أى منطق يحكمها» ويقول «إن التعسف الأيديولوجى ينشأ فقط حينما يلجأ الباحث إلى إخفاء بعض الحقائق التاريخية أو إبراز بعضها على حساب البعض الآخر ليؤكد فرضيته التى بدأ منها» وهكذا تتبدى رؤية علمية تماما لإعادة كتابة تاريخ مصر والمصريين.

ويعود طاهر بعد اغتراب طويل، ليؤسس دار نشر واعدة أسماها «فكر».

ويحاول أن يجعل من هذه الدار منارة لفكر جديد، تؤسسه الماركسية ولكن وفق أسس جديدة تتلاءم مع العالم الجديد، لكن طموحاته تتصادم مع قلب أرهقه الأسى والاغتراب والجهد الذى لا يمل.. ويرحل، لكن كتاباته تبقى.